﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤٠﴾ [الأعراف: 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عاقِبةُ المكذِّبين والمستكبِرين لا تَحتَمِلُ النَّجاةَ

لَمَّا ذكرَ اللّهُ سُبحانَهُ جزاءَ الكفَرَةِ المُكذِّبينَ بآياتِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾، وبيَّن سُبحانَهُ أنَّ لهم ضِعْفًا منَ العذابِ، وكانتِ العادَةُ جاريَةً بأنَّ مَن وقعَ في شدَّةٍ؛ توقَّعَ الخَلَاصَ منها؛ أخبرَ سُبحانَهُ في هذه الآيةِ أنَّ هؤلاءِ الكفرةَ المُكذِّبينَ ليسُوا كذلكَ؛ لكونِهم أنجاسًا، فليسُوا أهلًا للنَّجاةِ والخلاصِ، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَذَّبُواْ﴾: الكافُ والذَّال والباءُ تدورُ اشتقاقَاتُهَا على خلافِ الصِّدقِ، ومِنه الكذِبُ؛ وهو الإخبارُ عنِ الشَّيءِ بخلافِ ما هو عليه مُطلَقًا، سواءٌ أَوقَعَ ذلك الإخبارُ عن عَمدٍ أم خطَأٍ، إلَّا أنَّ الإثمَ في الشَّرعِ مُعَلَّقٌ على ما وقعَ مِنه عَمدًا[2].

ويُطلَقُ الكَذِبُ على مَعَاريضِ الكلَامِ؛ وهو الكَلامُ الّذي هو كَذِبٌ من حَيثُ ظَنُّ السَّامعِ، وصِدقٌ مِن حَيث قالَه القائلُ[3].

وأمَّا التَّكذيبُ فهو بزنةِ التَّفعيلِ، وهذا الوزنُ (التَّفعيلُ) يَرِدُ لإرادةِ النِّسبةِ، كما في التَّكذيبِ؛ فإنَّهُ هُنا النِّسبةُ إلى الكَذِبِ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/399.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (كذب)، والفيوميّ، المصباح المنير: (كذب).
(3) أبو موسى المدينيّ، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: (كذب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (كذب).

2) ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: الهمزَةُ والياء والحرفُ المعتلُّ[1] تدلُّ علَى بقاءِ الشَّيء في مكانه شَاخِصًا، عَلامةً لِشَيءٍ وأمارَةً عليه[2]، ومِنه قولُهم: خرجَ القومُ بآياتِهم؛ أي: جماعتِهم؛ فَلَم يَدَعُوا شيئًا مِمَّا مِن شأنِهِ أَن يكُونَ شاخصًا إلَّا حَمَلُوهُ، وفِيهِ معنَى الكَثرَةِ والجسَامَةِ أيضًا.

والآيَةُ: كلُّ شيءٍ ظاهرٍ مُلازِمٍ لشيءٍ باطنٍ يُعرَفُ بِهِ، حسّيًّا كان أو عقليًّا[3].

وآياتُ اللّهِ تعالى المذكورةُ في قوله سُبحَانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ هي الحججُ والأدلَّةُ[4]؛ وهِيَ شامِلَةٌ لجميعِهَا، فتَدخل فيهَا الآياتُ الشَّرعيَّةُ والكونيَّةُ.

3) ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: الكَافُ والبَاءُ والرَّاء تدلُّ تصاريفُها على ضدِّ الصِّغَرِ، ومِنه: الكِبَرُ؛ وهو الهرَمُ، والكِبرِياء؛ وهي: العظَمَةُ[5].

وَالكِبرُ: هو التَّرفُّعُ عنِ الإقرار بالحقِّ والطُّغيانُ في دفعه، واحتقارُ النَّاسِ والإزراءُ بِهِم[6]، وهذا المفهومُ عبَّر عَنه رسولُ اللّه ﷺ بأَوجَزِ عبارةٍ وأبلغِها؛ فقالَ: «الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»[7].

والسِّينُ والتَّاء في ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ تدلُّ على القوَّةِ لا الطَّلبِ، فمعنى ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: قَوِيَ كِبرُهُم[8].

4) ﴿يَلِجَ﴾: الواوُ واللَّامُ والجِيمُ تدلُّ اشْتِقاقاتُهَا على دخولِ شيءٍ[9]، والولوجُ: الدُّخول[10]، ومنه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: 2] أَي: يَدخُلُها مِن مطَرٍ وغَيرِهِ[11]، وهو المعنَى المرادُ مِن قَولِهِ سُبحانَهُ: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ﴾؛ أي: يدخُلَ.

5) ﴿ٱلْجَمَلُ﴾: الجيمُ والميمُ واللَّامُ تدلُّ تصريفَاتُهُ على معنَيَينِ كُلِّيَّيْنِ؛ أَحَدُهُما: تجمُّعٌ

(1) في اشتقاق لفظ (الآية) خلافٌ. يُنظر: الآلوسّي، روح المعاني: 1/242.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أيى).
(3) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن، ص: 101.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/421.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كبر).
(6) ابن الجوزيّ، كشف المُشكل من حديث الصَّحيحين: 3/323.
(7) رواه مُسلم في صحيحه، الحديث رقم: (91).
(8) أحمد الحمَلاوِيّ، شذا العَرْف في فنِّ الصَّرف، ص: 35.
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ولج).
(10) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (ولج).
(11) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبَيْن في القرآن والحديث: (ولج).

وعِظَمُ خَلْقٍ، والآخَرُ: حُسْنٌ. ومِنَ الأوَّلِ قولُكَ: أجْمَلتُ الشَّيءَ؛ أي: جمعتُهُ وحصَّلْتُهُ، ومنه قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: 32]، ومِن هذا المعنَى: الجُمَّلُ؛ وهو الحبلُ الغَليظُ، وَالجَمَلُ: الحيوَانُ المعروفُ، وجائزٌ أن يكون سُمِّيَ بذلك لعِظَمِ خَلْقِه[1].

وما ذكره بعضُ المُحدَثِينَ مِن أنَّ ﴿ٱلۡجَمَلُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾، هو الحَبلُ الغَليظُ خطأٌ[2]، وهو تفسيرٌ حادِثٌ لا شاهدَ له من كلامِ العربِ، ولا قائلَ بهِ من فحولِ أئمَّةِ التَّفسيرِ، وإنَّما الحَبلُ الغَليظُ يُقال له: الجُمَّلُ أو الجُمَلُ - بالتَّخفيف والتَّشديد - [3] لا الجَمَلُ، ولذا قال ابنُ مسعودٍ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عنِ الجَمَلِ: (هو زَوجُ النَّاقَةِ)، قال القرطبيُّ مُعلِّقًا: "كأنَّه استجهَلَ مَن سألَهُ عَمَّا يَعرِفُه النَّاسُ جَميعًا"[4].

6) ﴿سَمِّ﴾: السِّينُ والميمُ تَدورُ اشتقاقَاتُهَا على مدخَلٍ في شيءٍ، ومِنه: السَّمُّ؛ وهو الثُّقبُ في الشَّيءِ، والسُّمُّ القاتِلُ؛ سُمِّيَ بذلكَ لأنَّهُ يرسُبُ في الجسمِ ويُداخِلُهُ[5].

ومنه سَمُّ الخياطِ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾، وهو ثقبُ الإبرةِ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اسْتِحالةُ نَجاةِ المكذّبين المسْتَكْبِرين منَ النَّارِ

إنَّ الّذينَ كذَّبُوا بِحُجَجِنَا وأدِلَّتِنا فلَم يُصَدِّقُوا بها، ولَم يَتَّبِعُوا رُسُلَنا، وتَكَبَّروا عنِ التَّصديقِ بِهَا، وأَنِفُوا مِنِ اتِّباعها والانقِيَادِ لَهَا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جمل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ولج).
(3) بيانُ الحقِّ النّيسابوريّ، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن: 1/518.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/206، والشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 245 - 247/3.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سم).
(6) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 4/358.

تكبُّرًا؛ لا تُفَتَّحُ لِأَرواحِهم إذَا خَرَجَت مِن أَجسَادِهِم أبوابُ السَّماء، ولا يَصعَدُ لَهُم في حياتِهِم إلى اللّهِ تعالى قولٌ ولا عمَلٌ؛ لأنَّ أعمالَهُم خَبِيثَةٌ، ولا يَدخُلُ هؤلاءِ الجنَّةَ الّتي أعدّها اللّهُ لأولِيَائِهِ المُؤمِنين أبدًا، كما لا يَلِجُ الجَمَلُ في ثُقبِ الإبرَةِ أبدًا، ومثلُ ذلكَ الجزَاءِ نَجزِي الّذين كَثُرَ إجرَامُهُم، واشتدَّ طُغيَانُهُم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ عَمَّا قَبلُ:

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فَبينَ الجملتَينِ شبهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ يَبْعَثُ في نَفسِ المتلقِّي سُؤالًا وهو: هَل لِهَؤُلاءِ خَلاصٌ ونجاةٌ ممَّا وقعُوا فيهِ مِنَ النَّار؟ فجاء الجوابُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ فبيَّنَ اللّهُ ﷻ أنَّهُم ليسُوا أهلًا لِلخَلاصِ ممَّا وقعُوا فيه مِنَ المَهالِكِ[2].

المُكَذِّبُونَ لِلآيَاتِ لَيسُوا أَهلًا لِلخَلاصِ والنَّجاةِ يَومَ القِيامَةِ

ويجوزُ أن تَكُون علَّةُ الفصلِ كونَ الآيةِ استئنافًا ابتدائيًّا مسوقًا لتحقيقِ خلُودِ الفَريقَينِ المذكورَينِ قَبلُ في النَّارِ[3].

سِرُّ التَّأكيدِ بأداةِ ﴿إِنَّ﴾:

أُكِّدَ قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ - وهو جملةٌ خبريَّةٌ - بـ﴿إِنَّ﴾؛ لإرادَةِ تَيئِيسِهِم منَ النَّجاةِ ودخولِ الجنَّةِ، وذلك لدفعِ توهُّمِ أن يكُونَ المرادُ بالخلُودِ المُتقدِّمِ ذِكرُهُ - في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾ [الأعراف: 36] - كنايةً عن طولِ البقاءِ في النَّارِ؛ إذِ الخلودُ يَرِدُ لهذا

دَفعُ أوهامِ المُكَذِّبِينَ في النَّجاةِ من تمامِ العَدلِ وكَمالِ الفضلِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 421 - 427/12، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 155.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/399.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/125.

المعنَى، فبيَّن في قولِه سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أنَّ المرادَ بالخلودِ خلودٌ أَبَدِيٌّ دائمٌ[1].

نُكتَةُ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ:

الجَزاءُ بالخُلودِ في النَّارِ عامٌّ لِكُلِّ مُكَذِّبٍ بآياتِ اللهِ تعالى

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ إظهارٌ في محلِّ الإضمار؛ إذ مُقتضَى الظَّاهِرِ أَن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (إنَّهم لا تُفتَّحُ لَهُم أبوابُ السَّماءِ)، فأُظهِرَ في مقامِ الإضمَار، وفي ذلك ثلاثُ نِكَاتٍ[2]:

أُولاها: إرادةُ تعميمِ الحُكمِ لكلِّ مُكذِّبٍ بالآياتِ مُستكبِرٍ عنها، بخلافِ الإضمارِ؛ فإنَّه يُوهِمُ اختصاصَهُ بالطَّائفَتَينِ المُتحدَّثِ عنهما دون مَن يُماثِلُهُمَا.

ثَانِيهَا: تعليقُ الحُكمِ بالوَصفِ؛ لبيانِ أنَّ سببَ خلودِهم في النَّارِ هو تكذيبُهُم بالآياتِ واستكبارُهُم عنها.

ثَالثُهَا: دَفعُ احتمالِ أن يكُونَ الضَّميرُ - في حال جَريانِ الكلامِ على مُقتَضَى الظَّاهِرِ - راجِعًا إلى إحدَى الطَّائفتينِ المُتحاوِرَتَينِ في النَّار.

وَجْهُ تَعريفِ المُسنَدِ إلَيهِ بالمَوصولِيَّةِ:

اسْتِحقاقُ دخولِ النَّارِ بسَببِ التَّكذيبِ والاستِكبَارِ

عُرِّفَ المسندُ إليه بالموصوليَّةِ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ للإيماءِ إلى وجهِ بناءِ الخبَرِ؛ أي: أنَّهم استحقُّوا الجزاءَ المذكورَ في الخبَرِ من عدمِ تفتيحِ أبوابِ السَّماءِ لهم، وعدمِ دخولِهم الجنَّةَ بسببِ تكذيبِهم بآياتِ اللهِ تعالى واستكبارِهم عنها[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/125.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/399، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/126.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/126.

عِلَّةُ إيرادِ الاسمِ المَوصولِ جَمْعًا:

المُكذِّبونَ مِلَّةٌ واحدةٌ حالًا ومآلًا

إيرَادُ الاسمِ الموصول جَمعًا في قولِه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾؛ فيهِ إيماءٌ إلى كثرةِ المُكذِّبينَ بآياتِ اللهِ سُبحانَهُ المُستكبرينَ عنها، وأنَّهم كالفريقِ الواحدِ في العلَّةِ والمآلِ.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضِيًا:

تَحَقُّقُ وَصفِ التَّكذيبِ والاستِكبارِ

جيءَ بصلةِ المَوصولِ فعلًا ماضيًا ﴿كَذَّبُواْ﴾ و﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ من قولِه سُبحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ للدّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ التَّكذيبِ والاستِكبارِ فيهِم.

نُكتَةُ إضافَةِ (الآيَاتِ) إلى ضَميرِ العَظَمَةِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

إظهارُ كَمالِ قُبحِ التَّكذيبِ بِآياتِ اللهِ تعالى

إضافةُ الآياتِ إلى الضَّميرِ الرَّاجعِ إلى اللهِ ﷻ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يُرادُ به تعظيمُ المضافِ وهو الآياتُ[1]، لا سيَّما وأنَّ الضَّميرَ جاءَ بأسلوبِ العظَمَةِ؛ لزيادةِ المهابةِ وإدخالِ الرَّوعةِ في نفوسِ المُتَلَقِّينَ.

وفي تعظيمِ الآياتِ على النَّحوِ المُتقدِّمِ إظهارٌ لكمالِ قبحِ التَّكذيبِ بها والاستكبارِ عنها.

سِرُّ عَطْفِ الاستِكبارِ على التَّكذيبِ:

بَيانُ إيغالِ الكُفَّارِ في الضَّلالِ؛ بذكرِ صُوَرِ الضَّلالِ وأنواعِهِ

عُطِفَ الاستكبَارُ على التَّكذيبِ في قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾؛ للإيمَاءِ إلى توغُّلِهم في الضَّلالِ؛ إذ لَم يكتَفُوا بالتَّكذيبِ، فيتوهَّمُ مُتوهِّمٌ أنَّ لَهُم بيِّنَةً على تكذيبِهم هذا، أو أنَّهم مُتأوِّلُونَ فيه، بل إنَّ الَّذي حملَهُم على التَّكذيبِ هو استكبَارُهُم عَن قبولِ الحقِّ.

وهَذا العَطفُ يجُوزُ أن يكُونَ مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ، ومن عطفِ العامِّ على الخاصِّ، فأمَّا كونُهُ مِن عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/399.

فإنَّ المُكذِّبَ قَد يكُونُ مُستَكبِرًا، وقد لا يَكُونُ، فالتَّكذيبُ بهذا أعمُّ مِنَ الاستكبَارِ، وأمَّا كونُهُ مِن عطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ فذلكَ أنَّ المُستَكبِرَ قَد يصدُرُ منه تكذيبٌ، وقد لا يَبدُرُ منه ذَلِكَ.

فبينَ الاستكبَارِ والتَّكذيب عمومٌ وخصوصٌ وَجهِيٌّ، يجتَمِعانِ في صورةِ المُكذِّب المُستكبِرِ، ويفترِقُ كلٌّ مِنهُما عنِ الآخَرِ على الوَجهِ المُتقدِّمِ آنِفًا، فباعتبَارِ الفَرقِ بينَهُما يصحُّ حَملُهُ على العَطفَينِ، فتكونُ الجملةُ مِن قَبيلِ الإطنَابِ، ونُكتتُهُ: بيانُ إيغالِهِم في الضَّلالِ والانحرَافِ، بجمعِهِم بينَ صُوَرِهِ وأنواعِهِ.

سِرُّ بِناءِ الفِعْلِ ﴿تُفَتَّحُ﴾ لِلمَفعولِ:

بُنِيَ الفعلُ ﴿تُفَتَّحُ﴾ للمَفعُولِ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ صِيانَةً لِلملائكَةِ السَّماءِ عَن أن تُذْكَرَ مع أهلِ التَّكذيبِ والاستكبَارِ؛ تعظيمًا لَهُم، وتحقيرًا لِلمُكذِّبينَ، والدَّالُّ على أنَّ الّذي يصدُرُ منه التَّفتيحُ هُم الملائكَةُ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «وإنَّ العَبدَ الكَافِرَ إذا كَانَ في انقطاعٍ مِنَ الدُّنيَا وإقبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إلَيهِ مِنَ السَّماءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ، مَعَهُمُ المُسُوحُ، فَيَجلِسُونَ منه مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوتِ، حتَّى يَجلِسَ عِندَ رَأسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفسُ الخَبِيثَةُ، اخرُجِي إلى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ. قَالَ: فَتُفَرَّقُ في جَسَدِهِ، فَيَنتَزِعُهَا كَمَا يُنتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبلُولِ، فَيَأخُذُهَا، فَإذَا أَخَذَهَا لَم يَدَعُوهَا في يَدِهِ طَرفَةَ عَينٍ حَتَّى يَجعَلُوهَا في تِلكَ المُسُوحِ، ويَخرُجُ مِنهَا كأَنتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ على وَجهِ الأَرضِ، فَيَصعَدُونَ بها، فلا يَمُرُّونَ بها على ملأٍ مِنَ المَلَائِكَةِ، إلَّا قالُوا: ما هذا الرُّوحُ الخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بنُ فُلَانٍ بِأَقبَحِ أَسمَائِهِ الَّتِي كانَ يُسَمَّى بِهَا في الدُّنيَا، حتَّى يُنتَهَى به إلى السَّمَاءِ الدُّنيَا، فَيُستَفتَحُ لَهُ، فَلَا يُفتَحُ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[1].

تَعظِيمُ قَدْرِ المَلَائِكَةِ وتَحقِيرُ شَأنِ المُكَذِّبِينَ

(1) رواه أحمد في مسنده، الحديث رقم: (18534)، وصحّحه الألبانّي في صحيح الجامع الصّغير: (برقم: 1676).

نُكتَةُ تَضعِيفِ الفِعْلِ ﴿تُفَتَّحُ﴾:

شِـدَّةُ تعـذِيبِ أهـلِ الـكُـفـرانِ دليلٌ على عِظَمِ كـرَامـةِ أَهـلِ الإيمانِ

وردَ الفعلُ ﴿تُفَتَّحُ﴾ في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ بصيغةِ التَّضعيفِ لنكَاتٍ[1]:

أُولاها: الدّلَالَةُ على كثرةِ الأبوَابِ لا كَثرةِ الفعلِ؛ لأنَّ ذلك لا يُناسِبُ المقامَ.

ثانيهَا: إفادَةُ تحقيقِ نَفيِ الفَتحِ لهُم.

ثالثُهَا: الإيماءُ إلى أنَّ المبالغَةَ بتضعيفِ الفعلِ دالَّةٌ على أنَّ المنفيَّ هو فَتحٌ مَخصُوصٌ؛ وهو الفتحُ الّذي يُفتَحُ لأهلِ الإيمانِ، وهو فَتحٌ قَوِيٌّ، فيكون في تلكَ الإشارَةِ زيادَةٌ في نِكايَتِهم.

دَلَالَةُ اللَّامِ في: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

انغلاقُ السَّماءِ الأُولى دليلٌ على أنَّ ما بعدَها أولَى

اللَّامُ في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ من قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ للعَهدِ العلميِّ، والمرادُ السَّماءُ الأُولَى وهِيَ سَمَاءُ الدُّنيَا، وذلك أَبلَغُ في بيانِ عدَمِ تفتِيحِ أَبوَابِ السَّمَاءِ لهُم؛ لأنَّ أرواحَ هَؤُلاءِ المُكَذِّبين إذا لَم تَتَجاوَزِ السَّماءَ الدُّنيا؛ فهِيَ لَم تتجاوَزْ ما فوقَها مِنَ السَّماواتِ من بابِ أَولَى وأحرَى.

بَرَاعَةُ النَّظْمِ في الجمْعِ بين الحقيقةِ والمجازِ:

تَنزيلُ المُكَذِّبينَ بِـالآيَـاتِ مَنزلَةَ الشُّفعاءِ الّذين يُهانُونَ بالرَّدِّ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ ظاهِرُه أنَّه حقيقَةٌ لا مجَازٌ، كما يدلُّ على ذلك الحديثُ الآنِفُ الذِّكر، ويجوزُ أن يُرَادَ منه معنًى مجازِيٌّ؛ لأنَّ اللَّفظَ يحتمِلُهُ، والتَّحقيقُ أنَّ هذا يندَرِجُ تحتَ حَملِ اللَّفظِ المُشترَكِ على معنَيَيه، فالمعنَى المجازِيُّ الّذي تُرشِدُ إليه الآيةُ الكريمَةُ قد سيقَ مساقَ التَّمثيلِ؛ وهو تمثيلٌ لأسبابِ التَّزكيَةِ، فكمَا أنَّ الشُّفعاءَ إذا أَتَوا مكانًا قد يُقبَلُون ويُرضَى عَنهُم، فتُفَتَّحُ لهم أبوابُ القصورِ ويدخلُونَ على وجه التَّكريم، وقد يُردُّون وتوصَدُ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/358، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/127.

الأبوابُ في وجوهِهم على وجهِ الإهانَةِ والسُّخطِ؛ فكذلك مُثِّلَ إقصاءُ المُكذِّبين بآياتِ اللهِ تعالى المُستَكبِرين عنها وعدَمُ الرِّضا عنهم بحالِ مَن لا تُفتَّحُ له أبوابُ المنازِلِ والقصور، وأُضيفَتِ الأبوابُ إلى السَّماءِ للإيماءِ إلى أنَّ هذا التَّمثيلَ واردٌ لبيانِ حِرمَانِهم مِن وَسائِلِ الخَيراتِ الإلهيَّةِ[1].

معنَى اللَّامِ في: ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾:

الـجَـنَّـةُ أَطـهَـرُ المَنَازِلِ وأَشرَفُها

اللَّامُ في: ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾ مِن قَولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ لامُ العهدِ العِلميِّ، والمرادُ: جنَّةُ الخُلدِ الّتي هِيَ أطهَرُ المنازِلِ وأشرَفُهَا[2].

بَلاغةُ تَعْليقِ النَّجاةِ بالمستحِيلِ:

تَأكِيدُ تَيئِيسِ المُكَذِّبِينَ مِن دُخولِ الجَنَّةِ

في قَولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ تمثيلٌ بليغٌ لبيانِ تَيئِيسِهم مِن دخولِ الجنَّةِ؛ فقد عُلِّقَ دُخُولُهم إيَّاهَا على محالٍ؛ إذِ الجَمَلُ يستحيلُ دخولُهُ في مَسلَكٍ ضيِّقٍ كثُقبِ الإبرةِ، وهذه الجملةُ - ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ - تأكيدٌ بطريقِ تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضدَّه، إذ جُعِلَ انتفاءُ دخولِهم الجنَّةَ مُستمِرًّا على وجهِ الدَّوامِ؛ لجعلِهِ المُستَحِيلَ غايةً له[3].

بَراعةُ الاِحْتِبَاكِ في الآيةِ:

حَـذْفُ المُقَابِلِ لِدِلالَةِ المَذكُورِ عليه

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ حذفٌ على طريقةِ الاحتباكِ، وهُوَ المُسمَّى: حذفَ التَّقابُلِ أَوِ الحذفَ المُقَابَلِيَّ؛ إذ حُذِفَ مِن كُلِّ جملةٍ ما دلَّ عليهِ مقابِلُهَا مِنَ الجملةِ الأُخرى، وتَقديرُ الجملَةِ: لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السَّماءِ فيدخُلُوهَا، ولا تُفتَّحُ لهُم أبوابُ الجنَّةِ فيدخُلُوها، فحُذِفَ الدُّخولُ مِنَ الجملةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/126.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/399.

(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/223، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/400، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/127.

الأُولَى؛ لدلالة: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ عليه مِنَ الجملةِ الثَّانيةِ، وحُذِفَ تَفتيحُ الأبوابِ منَ الثَّانيَةِ لدلالةِ ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ عليهِ منَ الجملةِ الأُولَى.

نُكتَةُ تَخصِيصِ الجَمَلِ دُونَ غَيرِهِ:

خُصَّ الجَمَلُ بالذِّكرِ دونَ سائرِ الدَّوابِّ، مع أنَّ فيهَا ما هو أعظَمُ منه؛ لنكاتٍ[1]:

مُعايَشَةُ الجَمَلِ للعربِ في حياتِهم دعوةٌ للتَّأمُّلِ الدَّائمِ في مَصيرِ المُكذِّبين

الأُولى: أنَّ المرادَ ضربُ المَثَلِ، وهذا المرادُ يحصُلُ بالجَمَلِ؛ إذِ المعنَى: نَفيُ دُخولِهم الجنَّةَ كما لا يَدخُلُ الجمَلُ في ثُقبِ الإبرةِ.

الثَّانيةُ: أنَّ الجَمَلَ أكبرُ شأنًا عند العربِ من سائرِ الدَّوابِّ؛ فإنَّهم يُقدِّمونَهُ في القُوَّة على غيرِهِ، ولذا عجَّبهم اللَّهُ سُبحانه من خَلقِ الإبلِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧﴾ [الغاشية: 17]، فآثرَ اللَّه ﷻ ذكرَ الإبلِ على غيرِهَا لهذا المعنى.

ولم يُذكَرِ الفيلُ مع أنَّه أكبَرُ منَ الجَمَلِ؛ لأنَّ القرآنَ الكريم واردٌ على ما تعرفُهُ العربُ؛ إذْ هو جارٍ على لغتِهم، والعرَبُ إنَّما يعرفُونَ الجَمَلَ، ولم يكُنْ في بلادِهم الفيَلَةُ[2].

الثَّالثة: أنَّ الجملَ شاخصٌ أمامَ أعيُنِ العربِ؛ فهم يَرَونَه صباحَ مساءَ، وربطُ الآيةِ بما هو حاضرٌ في الحياةِ اليوميَّةِ، أدعى للتَّفكُّرِ، وأحرى بالتَّأمّلِ.

نُكتَةُ تَعريفِ ﴿ٱلۡجَمَلُ﴾:

استِحضارُ المُكذِّبِ لجملٍ بعينِه أوقعُ في مَعرفةِ الاستِحالةِ ذِهنيًّا

اللَّامُ في: ﴿ٱلۡجَمَلُ﴾ من قَولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ هي لامُ العَهدِ الذِّهنيِّ عند البلاغيِّينَ لا النَّحويِّينَ، وهي الدَّالَّةُ على الحَقيقَةِ في ضِمنِ فَردٍ مُبهَمٍ، فهيَ في المَعنَى بمنزلَةِ النَّكرةِ، والتَّقدير:

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/119.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/225.

حتَّى يَلِجَ جَمَلٌ مِنَ الجِمَالِ في سَمِّ الخياطِ، والقَرِينَةُ هو الفعلُ ﴿يَلِجَ﴾؛ فلا يُرادُ به استغراقُ الأفرادِ قطعًا، ولا الحقيقةُ من حيثُ هِيَ؛ لأنَّ الحقيقةَ معنًى في الذِّهنِ، وهي لا تُوصَفُ بالوُلُوجِ أو عَدَمِه.

ونكتةُ هذا التَّعريف اللَّفظيِّ الّذي هو في حقيقته نكرةٌ، هو أنَّ هؤلاءِ المُكذِّبين سيستحضِرُونَ جَملًا بعينِه يَعْرِفونَهُ، فيتمثَّلون به الآيةَ، فيقعُ منهم مَوقِعَ المعرفة، فهو تجسيدٌ للصُّورةِ في الأذهانِ، واستحضَارٌ للاستحالةِ في الأفئدةِ.

دَلَالَةُ التَّشبِيهِ في الآيةِ:

استِحالَةُ دُخولِ الجَنَّةِ تَنالُ كُلَّ مُجرِمٍ

التَّشبيهُ في قولِ اللهِ سُبحَانَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، الّتي تدلُّ عليه كافُ التَّشبيهِ، مَعقُودٌ ما بينَ عذابِهم واستحالَةِ الرَّحمةِ بِهِم ودُخُولِهم الجنَّةَ، وبينَ ما أعدَّهُ اللهُ ﷻ بالنِّسبةِ لكلِّ مَن يُجرِمُ ويأثَمُ في حقِّ اللهِ سُبحانَهُ[1].

دَلَالَةُ اسمِ الإشارَةِ في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

فَظاعَةُ عَذابِ المُجرِمِينَ قَادَةً كانُوا أَو أَتبَاعًا

وَرَدَ اسمُ الإشارَةِ (ذَلِكَ) من قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ دالًّا على البُعدِ؛ لِلإيماءِ إلى عظَمَةِ ذلك الجَزاءِ وفظاعَتِه[2]، والإشارةُ راجعةٌ إلى أنَّ القَاطِعِين لِمَا أمرَ اللهُ تعالى به أن يُوصَلَ، ولو كانوا أتباعًا مُقلِّدين لِلمُكَذِّبينَ والمُستَكبِرينَ؛ فإنَّ دخولَهُم الجنَّةَ محالٌ عادةً[3].

دَلَالَةُ اللَّامِ في: ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

يَعظُمُ العَذَابُ الأُخرَوِيُّ بِعِظَمِ الإجرَامِ

اللَّامُ في ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ من قَولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ دالَّةٌ على الكَمَالِ، والمعنَى: وكذلكَ نَجزِي أهلَ الإجرَامِ الكَاملِينَ فِيهِ.

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2838.
(2) جمال الدّين القاسميّ، محاسن التَّأويل: 5/58.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/400.

بَلاغَةُ التَّذْيِيلِ في الآيةِ:

الإجـرَامُ سَبَبٌ لإيقاعِ أَهلِهِ في شَدِيدِ العَذابِ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ تمثيلٌ غيرُ جارٍ مَجرَى المثلِ؛ لِعدَمِ استقلالِهِ، ولافتِقَارِهِ إلى ما قبلَهُ في الكَشفِ عَن تمامِ المرادِ منه؛ لِرُجوعِ اسمِ الإشارَةِ (ذَلِكَ) إلى مُتقدِّمٍ.

وهذا التَّذييلُ مُشعِرٌ بأنَّ الإجرَامَ هو السَّبَبُ الّذي أوقعَهُم في ذلك الجَزاءِ، "فَهُم قَد دَخَلُوا في عمُومِ المُجرِمينَ الّذين يُجزَون بمثلِ ذلكَ الجزَاء، وهمُ المَقصُودُ الأوّلُ منهم؛ لأنَّ عِقَابَ المُجرِمينَ قد شُبِّه بعِقَابِ هَؤلاءِ، فَعُلِمَ أنَّهُم مُجرِمُون، وأنّهم في الرَّعِيلِ الأوَّلِ مِنَ المُجرِمين، حتَّى شُبِّه عقَابُ عُمومِ المُجرِمينَ بِعِقابِ هَؤلَاءِ، وكانُوا مَثَلًا لِذَلِكَ العُمومِ"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّكذِيبُ والاستِكبارُ:

التّكذيبُ يَغلِبُ في العقليَّاتِ والاستِكبارُ في النّفسيَّاتِ

ذَهَبَ ابنُ عرفَةَ إلى أنَّ التَّكذيبَ أعمُّ مِنَ الاستِكبَارِ؛ لأنَّ المُكذِّبَ قَد يَكونُ مُستَكبِرًا، وقَد لَا يكونُ[2].

والظَّاهرُ أنَّ بينَ التَّكذِيبِ والاستِكبَارِ عُمومًا وخصوصًا من وجهٍ؛ فالتَّكذِيبُ أعمُّ مِنَ الاستِكبَار بالاعتِبَارِ المُتَقَدِّمِ ذكرُهُ، والاستِكبَارُ أعَمُّ مِنَ التَّكذِيبِ؛ باعتِبارِ أنْ ليسَ كلُّ مُستكبِرٍ يَقعُ منه تَكذِيبٌ، فتحصَّلَ أنَّ بَينَهُما عُمومًا وخصوصًا وَجهِيًّا، فقد يَجتَمِعانِ، وقَد يفترِقُ كلٌّ مِنهمَا عنِ الآخَرِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/128.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/225.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 13 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-09-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 13 : سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-09-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»